

المساهمة العلمية لعائلة محمد المبارك الجزائري في بلاد الشام (1847 - 1981)
*The scientific contribution of the family Mohammed Al-Mubarak
 Al-Jaza'iri in the Levant (1847-1981)*

1- نوي بن مبروك*، جامعة عباس لغرور (الجزائر)

nouben.59@gmail.com

تاريخ النشر: 2024 /12/17

تاريخ القبول: 2024 /12/08

تاريخ الاستلام: 2024 /10/21

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز الدور العلمي الذي لعبه المهاجرون الجزائريون في الحياة العلمية والثقافية ببلاد الشام منذ هجرتهم قادمين إليها من الجزائر عام 1847، تزامنا ونهاية مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري وهجرة خليفته محمد الطيب بن سالم. من خلال تسليط الضوء على علماء عائلة محمد المبارك الدّلسي الجزائري، وما قدموه من جهود في سبيل التعليم والنهوض به، طوال قرن وأربعة وثلاثون عاما من 1847 حتى تاريخ وفاة حفيد العائلة العالم والمفكر محمد بن عبد القادر المبارك سنة 1981. وهو السياق الذي تسعى اشكالية الدراسة الاجابة عليه والمتمثلة في التساؤل التالية: ما طبيعة المساهمة العلمية لعلماء عائلة محمد المبارك الجزائري؟. ودورهم في إثراء الحياة الثقافية في بلاد الشام؟. التساؤل الذي يدخل ضمنه جملة من التساؤلات هي:

- ما هو أصول عائلة محمد المبارك وكيف كانت هجرتهم؟.
- فيما تمثلت الجهود العلمية لعلماء العائلة تباعا؟.
- ما أثر ملامح هذا النشاط العلمي لعلماء العائلة؟.
- الكلمات المفتاحية: المبارك، دّلس، الجزائر، دمشق، بلاد الشام.

*- المؤلف المرسل

Abstract

This study aims to highlight the scientific role played by Algerian immigrants in the scientific and cultural life in the Levant since their migration from Algeria in 1847, coinciding with the end of the contract of Emir Abdelkader Al-Jazaery and the migration of his successor, Mohamed Tayeb Ben Salem. By shedding light on the scholars of the family of Mohamed Al-Mubarak Al-Dalsi Al-Jazaery, and the efforts they made in the way of education and its advancement, throughout a century and thirty-four years from 1847 until the date of the death of the family's grandson, the scholar and thinker Mohamed Ben Abdelkader Al-Mubarak in 1981. This is the context that the study's problem seeks to answer, represented in the following question: What is the nature of the scientific contribution of the scholars of the family of Mohamed Al-Mubarak Al-Jazaery? And their role in enriching the cultural life in the Levant? The question that includes a set of questions is: - What are the origins of the family of Mohamed Al-Mubarak and how did they migrate? - What were the scientific efforts of the scholars of the family represented in succession? - What are the impacts of this scientific activity of the family's scholars?

Key words: Al-Mubarak; Dellys; Algeria; Damascus: Levant.

مقدمة

تحدثت بعض الكتابات والدراسات التاريخية التي تناولت موضوع هجرة الجزائريين إلى المشرق أثناء الاحتلال الفرنسي مثل؛ دراسة عمار هلال المعنونة (الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام 1847 - 1918م) ودراسة نادية طرشون بعنوان (الهجرة الجزائرية نحو المشرق العربي: أثناء الاحتلال) ومؤلف سهيل الخالدي (الاشعاع المغربي في المشرق دور الجالية الجزائرية في بلاد الشام) وأكدت انخراط المهاجرين الجزائريين في الحياة العلمية في البلدان التي اتخذوها مستقرًا لهم وخاصة منها بلاد الشام، وبدأوا منذ الوهلة الأولى من دخولهم في المساهمة العلمية والثقافية بالتعليم أو تأسيس الزوايا والمدارس وتأليف الكتب وتقديم الدروس والمحاضرات في المسجد وظهرت عائلات جزائرية توارثت العلم وتبحرت في العلوم الدينية والعقلية شتى، ونبغ أبنائها في التأليف والصحافة والمشاركة في حركة الإصلاح والنهضة العربية.

فظهرت عائلات جزائرية شددت الانتباه في الحياة العلمية والثقافية السائدة آنذاك، واطلعت بدورها لكي تتبوأ مكانة عليا في الوطن الجديد فبرزت عائلات شغلت الناس بعلمها مثل عائلة الصالح السّمغوني وابنه طاهر الجزائري وابن أخيه سليم الجزائري، وعائلة الأمير عبد القادر الجزائري، وعائلة محمد بن عبد الله الخالدي وابنه محمد وعائلة الشيخ محمد المهدي السكلاوي، وعائلة محمد المبارك الدلسي موضوع هذه الدراسة، التي تُسلط الضوء على علماء تباعا، وما قدموه من جهود سبيل نشر التعليم في بلاد الشام والنهوض به، منذ تاريخ قدومهم إلى دمشق واستقرارهم ضمن هجرة أحمد الطيّب بن سالم خليفة الأمير عبد القادر الجزائري سنة 1847م حتى وفاة حفيد العائلة المفكر والعالم محمد عبد القادر المبارك سنة 1981.

الدراسة تهدف من خلال مساهمة عائلة محمد بن المبارك إلى إبراز الدور الذي لعبه المهاجرون الجزائريون في الحياة العلمية والثقافية في المشرق وبالأخص في بلاد الشام، في سياق إشكالية تحاول الاجابة على: إلى أي مدى ساهمت عائلة محمد المبارك في إثراء الحياة العلمية والثقافية في بلاد الشام؟ تدخل ضمنها الاجابة على ثلاث عناصر هي:

- أصل عائلة محمد المبارك .
- هجرة عائلة محمد المبارك الجزائري إلى بلاد الشام.
- اسهامات علماء عائلة محمد المبارك.

1. أصول عائلة ابن المبارك

تنسبها الكتابات التاريخية إلى الشيخ محمد المبارك المالكي الدّلسي القيرواني بن محمد الصالح بن عبد الله بن محمد الحاج بن علي بن قائد بن يعلى بن سلامة بن ابراهيم بن عبد الحليم بن عبد الكريم بن عيسى بن موسى بن عبد السلام بن محمد بن جعفر بن عبد الجبار بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن إدريس الأنوار بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن السيدة فاطمة الزهراء وسيدنا عليّ بن أبي طالب (رضى الله عنهما). وتقول هذه الكتابات أن العائلة نزلت بين البربر لإرشادهم وتلقينهم الطريقة فتعلمت لغتهم واختلطت بهم بالنسب والمصاهرة.⁽¹⁾

وتقول رواية أخرى؛ بعد أن تؤكد أن جد الأسرة هو محمد المبارك الدّلسي بن محمد بلخطيب بن عبد الله بن أحمد بن محمد الحاج بن عليّ، أن أقدم من عرف من الأسرة محمد الحاج الذي كان يقيم في

(1) محمد الحافظ مطيع ونزار أباطة، تاريخ علماء دمشق في القرن عشر الهجري، ج1، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، سورية، 1986، ص: 122.

الجزائر في قرية حملت اسمه فيما بعد، وهي تبعد نحو ثلاثة كليو مترات عن بني دُوالة شرقًا. وقد انتقل أحد أولاده منها، وسكن في دِلّس على ساحل البحر، وكان إمامًا وخطيبًا في مسجدها، وخلفه أولاده في الإمامة والخطابة، فاشتهرت الأسرة بالخطيب، وما زال هذا لقبها في الجزائر حتى اليوم.⁽²⁾

وفي الأسرة نبغ محمد بلخطيب، وكان على صلة بالشيخ على بن عيسى، شيخ الطريقة الخَلوتية، ومن كبار علماء منطقة القبائل، الأخير الذي عرض عليه ذات مرة حاجة أهل المنطقة لتعلم العربية، ونشر العلوم الشرعية فيها، فقام محمد بلخطيب بجولة علمية في المنطقة، ثم اختار قرية بني دُوالة. التي هي على إحدى قمم جبال جرجرة القريبة من مدينة تيزي وزو - مكان لإقامته، وحتى يكون على مقربة من ضريح جده الأعلى محمد الحاج، اشترى أرضًا بنى عليها بيتًا ومسجدًا، ثم أحضر عائلته من دِلّس، وقد عرف فيما بعد بلقب الدِّلّسي، كان ذلك في أواخر القرن الثاني عشر الهجري.⁽³⁾

2. هجرة عائلة محمد المبارك الجزائري إلى بلاد الشام

هاجر محمد المبارك من الجزائر إلى دمشق في أواخر سنة 1264هـ (1847م) مع قرابة 560 مهاجرًا ضمن الهجرة التي قادها أحمد الطيب بن سالم خليفة الأمير عبد القادر من منطقة القبائل بمعية شيخه المهدي السكلاوي مقدم الطريقة الرحمانية في المنطقة والشيخ الصالح السمعوني الزواوي الذين اتخذوا من دمشق مستقرا لهم بعد نهاية مقاومة الأمير عبد القادر للاحتلال الفرنسي.⁽⁴⁾

3. اسهامات علماء عائلة محمد المبارك

3.1. محمد المبارك الدِّلّسي الجزائري (1223/1269هـ - 1808/1853م)

وهو جد العائلة التي سميت على اسمه، ولد في عام 1223هـ (1808م)، حتى إذا بلغ سن التمييز اشتغل بحفظ القرآن الكريم، ثم بتحصيل مالا بد منه علوم الدين، ثم عكف على العبادة والتقوى في

(2) إبراهيم الزبيق، عبد القادر المبار العلامة اللغوي عضو مجمع اللغة العربية (1293هـ/1876م - 1364هـ/1945م)، إصدارات مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق، سورية، 2009، ص: 16.

(3) إبراهيم الزبيق، المرجع السابق، ص: 17.

(4) سهيل الخالدي، الإشعاع المغربي في المشرق، دار الأمانة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2016، 51. وأيضا ينظر: عمار هلال، الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام (1847 - 1918)، دار هوبة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص: 15.

السر والنجوى، وكان فيها في بداية أمره يأوي إلى غابة كثيرة الوحوش والسباع، يعبد الله فيها أياماً ثم يرجع إلى أهله يتزود لمثلها ويرجع لمكانه.⁽⁵⁾

ثم أرسله أباه محمد بلخطيب إلى شيخه على بن عيسى فلازمه، وأخذ عليه الطريقة الخلوتية، فلما دنت وفاة الشيخ علي أوصى به خليفته الشيخ محمد المهدي السكلاوي، فأكمل تعليمه وإرشاده، حتى تمكن، ووثق به شيخه بعلمه ووجهه إلى منطقة القبائل ليقوم بتعليم العربية ونشر العلوم الشرعية، وكثيراً ما كان يقيم في تيزي وزو وما حولها من قرى أشهراً عديدة، حتى أن أحد أعيان المنطقة زوجه ابنته، التي رزق منها بابنه محمد المنور.⁽⁶⁾

وخلال هذه الفترة يبدو أنه بعد وفاة والده محمد بلخطيب عاد إلى دلس، وأقام فيها، وكانت زوجته أم ولده المنور قد توفيت، فزوجه شيخه محمد المهدي السكلاوي إحدى بناته، فأنجبت له ابنه محمد الطيب - الذي سيأتي ذكره لاحقاً - عام 1255هـ (1839م)، كما أنه في هذه الفترة ذاع صيته في الأقطاع، وتخرج على يده عدد كثير من طلبة العلم لما تميّز به من ورع وكرم وسخاء.⁽⁷⁾

لما احتلت فرنسا الجزائر سنة 1246هـ (1830م) وأعلن الأمير عبد القادر الجزائري الجهاد ضد الفرنسيين المحتلين ساهم فيها الشيخ محمد المبارك بالنفس والنفيس والمال.⁽⁸⁾ وجمع جموع العباد كما قال: (صاحب حلية البشر) وسار بهم إلى المدافعة والجهاد، وما زال يحرض الناس على القتال ويساعدهم في الهمة والنفس والمال إلى أن ظهر الكفار على الإسلام، لحكمة أرادها الملك العلام، فقصد بلاد الشام.⁽⁹⁾

كان ذلك - كما أشرنا من قبل - في أواخر سنة 1264هـ (1847م) مع صهره الشيخ المهدي السكلاوي، وفي دمشق اشترى بيتاً في زقاق البركة بالقرب من مدرسة الخيضرية وتولى التدريس بها، وصار الشيخان المهدي والمبارك يقيمان فيها الأذكار ويقرآن الأوراد. وذاع فضل الشيخ محمد المبارك لعلمه وورعه ونسبه الشريف، فاجتمعت عليه القلوب، وصار مقصوداً لدفع الهموم والكروب. وبعد عامين من إقامته بدمشق توجه الشيخ محمد المبارك مع نفر من أصحابه ومريديه وأحبابه إلى البيت الحرام، لأداء

(5) عبد الرزاق البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، تج وتع: محمد بهجة البيطار، ج3، دار صادر، بيروت، 1993، ص: 1372.

(6) إبراهيم الزبيق، المرجع السابق، ص: 18.

(7) نفسه، ص: 18. وينظر كذلك: محمد جميل الشطي، روض البشر في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، 1323هـ، ص: 231.

(8) إبراهيم الزبيق، المرجع السابق، ص: 20.

(9) عبد الرزاق البيطار، المصدر السابق، ص: 1373.

فريضة الحج. وعقب عودته من الحج اتخذ لنفسه خلوة في داره، يعتكف فيها خمسة أيام من كل أسبوع، حتى إذا كان يوم الخميس فتح بابه لزيارة القاصدين، ومذاكرة الواردين، وكثيراً ما كان يقرأ لهم كتب الرقائق، ويستخرج كنوزها لآلئ الدقائق، ليزيدهم من فعل المأمور ترغيباً، ومن المأثم ترهيباً، ثم يعود لخلوته يوم السبت. ظل هذا دأبه بين خلوة يعتكف فيها، وجلوة يقرئ فيها، حتى وافته منيته سنة 1269هـ (1853م) وهو في نحو الخامسة والأربعين من عمره، ودفن في مقبرة نبي الله ذي الكفل بالمهاجرين في سفح قاسيون.⁽¹⁰⁾

3.2. محمد الطيب بن محمد المبارك (1255/1313هـ - 1839/1896م)

ولد في دلس بالجزائر عام 1255هـ (1839م)، ونشأ في حجر والده، ثم قدم معه دمشق في هجرة الجزائريين سنة 1264هـ (1847م)، التي كانت بزعامته جده لأمه الشيخ محمد المهدي السكلاوي. تعلم القرآن الكريم وجوّد وحفظه وأتقنه، وأجاد الخطّ وأحسنه، ولما توفي والده سنة 1269هـ (1853م) رباّه جدّه - محمد المهدي السكلاوي - على الطريقة الخلوتية. وبعد وفاته سنة (1861م) قام مقامه في المدرسة الخيضرية، وبقي فيه إلى أن توفي 1313هـ (1895م)⁽¹¹⁾

ومن العلماء الذين أخذ عنهم العلوم: الأمير عبد القادر الجزائري الذي قرأ على يديه كتاب (الفتوحات المكية) وغيره من كتب المتصوفة، كما قرأ فنوناً متعددة على يد الشيخ محمد بن مصطفى الطنطاوي، وعلى غيرهما من علماء المالكية، الذين أجازوه الإجازة العامة. ولما قدم الشيخ محمد الفاسي الشاذلي إلى دمشق سنة 1282هـ (1865م) أخذ عنه الطريقة الشاذلية، وبعد اشتغاله عليها مدة أذن له في الإرشاد ونشر الطريقة، فقام بالإرشاد وأحسن في إرشاده، وأقام أذكراها في الليل والنهار، وأكثر من السياحة في سبيلها. وفي سنة 1287هـ (1870م) أرسله الأمير عبد القادر الجزائري برفقة الشيخ الطنطاوي إلى مدينة قونية لمقابلة كتاب (الفتوحات المكية) على خط مؤلفها الشيخ محي الدين العربي وقرأها مع الشيخ الطنطاوي هناك مرتين مقابلة، بعد عودتهما إلى دمشق قرأها على الأمير عبد القادر.⁽¹²⁾

كان للشيخ محمد الطيب على الطريقة الشاذلية التي اتخذ لها مركزاً رئيسياً في زاوية الخيضرية يقيم فيها الأذكار والحضرات، إلى جانب مراكز أخرى في المزة عند مقام الصّحابي الجليل دحية الكلبي في قرية زاكية من قرى حوران. وذكر أن له نظم قصيدة على الطريقة الصّوفية يقول فيها ما يلي:

⁽¹⁰⁾ إبراهيم الزبيق، المرجع السابق، ص: 23-24.

⁽¹¹⁾ محمد الحافظ مطيع ونزار أباطة، المرجع السابق، ص: 122.

⁽¹²⁾ عبد الرزاق البيطار، المصدر السابق، ج 2، ص: 757.

سُلُوِي عن الأحباب حرَّمه الحبُّ	فإن هجروني فالعذاب بهم عذب
وهيات يوما أن أميل إلى السَّوى	وكيف وقلبي مُدُنْف بهم صبُّ
فإن حدثوا أروي الحديث بسائري	فنعم الشفا ذكر الأحبة والطب
فلله عيشٌ قد تقصَّى بقرهم	وكأس الهنا صاف ومغنى اللقاء رجب
سقوني شراب الأنس صرفًا مقدسًا	على المزج لما أن تمزقت الحجب
فقلت سليبي قرَّ عينًا بما ترى	وطب في الهوى نفسًا فقد حصل القرب
ألم تري أنَّ الوصل أضحى مقامه	عزيزًا رقيقًا لا تطاوله الشَّهب
حمانا منيع دونه الحتف يا فتى	وإن الهوى مرفاه مستوعر صعب
فكم مغرم أضحى مغنى ولم يفز	بنظرة إسعاف بها يسكن القلب
تؤجج نار الوجد بين ضلوعه	وأجفانه مثل الغمام لها سكب
يرى روحه تنحطَّ قدرًا بلحمة	وإن عدها يوما فذاك هو الذنب
فمن شاء يحيا ويحظى بنظرة	فبي فليمت وجدًا وإلا فلا يصبو

توفي يوم الاثنين 26 شعبان 1213هـ الموافق 11 فبراير 1896م، ودفن في المزة قرب الجبل قرب

مقام دحية.⁽¹³⁾

3.3. محمد بن محمد المبارك الجزائري (1263/1330هـ – 1847/1912م)

هو الابن الثاني للشيخ محمد المبارك، ويقال سماه على اسمه محمد بن محمد المبارك، وقد سماه فيما بعد باسم محمد الشيخ تمييزاً له عن اسم أبيه⁽¹⁴⁾ ولد في بيروت عام 1263هـ (1847م) في أثناء هجرة أسرته الأولى إلى الشَّام برئاسة جده لأمه الشَّيخ محمد المهدي السكلاوي، وفي دمشق أين استقر والده وجده نشأ فقرأ القرآن الكريم وجوَّده، وأخذ يطلب العلم. وكانت له حافظة جيدة حتي قيل إنه حفظ مقامات الحريري في خمسين يومًا، فدرس الأدب وعلوم التفسير والحديث والسيره واشتغل بالتصوف مثل أجداده. ونبغ في اللغة والأدب، وبرع في المناظرات والمساجلات. وأخذ عن الشيخ طاهر الجزائري بن الشيخ الصالح السمعوني، وحصل على العلوم التي استهوته. ولما توفي أخوه الشَّيخ محمد الطَّيِّب خلفه في الطريقة الخلوتية، وقام مقامه في زاوية المدرسة الخيضرية، وأجرى الذكر والحضرات فيها، وفي بيته بزقاق سيدي عمود.⁽¹⁵⁾

⁽¹³⁾ محمد الحافظ مطيع ونزار أباطة، المرجع السابق، ص: 124.

⁽¹⁴⁾ إبراهيم الزبيق، المرجع السابق، ص: 22.

⁽¹⁵⁾ محمد الحافظ مطيع ونزار أباطة، المرجع السابق، ص: 274.

اختصَّ بالأمير عبد القادر الجزائري، واقتصر على مدحه شعراً وحصر جميع ما أنشأه من المحاورات والرحلات باسمه. ووظفه الأمير مُؤدباً لأطفاله، فكان له في دار الأمير محل على حدة يُقرئ فيه أولاده ويُؤدبهم. ثم صار في المدرسة الريحانية أستاذاً لها واختصَّ بها، وأقام معه من تلامذته من يعينه في تعليم الأطفال.⁽¹⁶⁾

ومما يذكر عنه أنه هو الذي تولى إفتاء المالكية في دمشق، والشيخ محمد الحكيم، والأستاذ كرد علي رئيس المجمع العربي في دمشق، وكانت مجالسه عامرةً بالأدباء، ومالَ إلى الأدب والتصوف وله حواشٍ وتعليق على ما قرأه من الكتب ولا سيما على تفسير ابن جرير الطبري. وكان يُصرِّح أن مبدأه ليس تأليف الكتب، ولكن تصحيح كتب السلف وضبطها؛ فلماذا لم يكلف بالضبط والتصحيح، فترى في مكتبته كتباً كثيرة محشوة بالفوائد مثل: سيرة ابن هشام، ونوادر الأصول للترمذي الحكيم، والذريعة إلى مكارم الشريعة، ومقامات الزمخشري، وكثيراً من كتب التصوف والأدب عليها تقارير ومقابلات، وجمع في مكتبته مخطوطات نفيسة آلت من بعده إلى والده الشيخ عبد القادر. وله قصائد تملأ ديواناً مجموعاً بخطه، ورسائل ست أشبه بالمقامات طُبعت في دمشق، وهي:

- غناء الهزار ونضرة البهار في محاورة الليل والنهار.
- أبهى مقامة في المفاخر بين الغربية والإقامة، ذكر فيها الأمير عبد القادر ورحلته إلى بعلبك وهو يرافقه.
- المقالة اللغزية والمقالة الأدبية.
- بهجة الرائح والغادي في أحسن محاسن الوادي، ضمها رحلته إلى غوطة دمشق.
- غريب الأنباء في مناظرة الأرض والسماء، طُبعت بدمشق سنة 1303 هـ.⁽¹⁷⁾

مما ذكر عن سمو أخلاقه وبساطته، ما ذكره عنه معاصره الأستاذ محمد علي كرد أن الدولة وجهت إليه رتبة علمية من دون أخذ رأيه فاستاء جداً ولم يقبلها، ولم يسع إلى الوالي ليشكره على الأقل على توجيهها إليه، وكان ينقبض ويغضب إذا ذكرت له، وهو الذي عاش حياته بعيداً عن أصحاب

⁽¹⁶⁾ محمد حسن الطيّان، المفاخرات والمناظرات، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2000، ص: 83 - 84.

⁽¹⁷⁾ أحمد تيمور باشا، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2017، ص: 205.

السلطان، واختار لصحبته أناساً من طبقة التجار والباعة، يعلمهم البسائط ويوسع مداركهم حتى يشاركوا في العلم ولو مشاركة خفيفة.⁽¹⁸⁾

كانت وفاته يوم الثلاثاء 5 جمادى الثانية سنة 1330 هـ في الصالحية، ودفن في مقبرة المنسوبة للنبي ذي الكفل عليه السلام في سفح قاسيون التي دفن فيها والده.⁽¹⁹⁾

3.4. عبد القادر بن محمد بن محمد المبارك (1293 – 1364 هـ / 1876 – 1945 م)

ولد عبد القادر بن محمد بن محمد المبارك عام 1293 هـ (1876 م)، وفد سمّاه الأمير عبد القادر الجزائري باسمه، تعبيراً عن محبته لأبيه.⁽²⁰⁾ نشأ في حجر والده، فحضر مجالسه الأدبية والوعظية وتلقى عنه كثيراً من المعارف اللغوية والأدبية، ودرس مدة قليلة في المدرسة العسكرية، ثم أتمّ دراسته على الطريقة القديمة، فقرأ على شيوخ العصر كالشيخ أمين سويد والشيخ بدر الدين والشيخ عطا الكسم وغيرهم. ثم عكف على دراسة اللغة بنفسه وصرف في ذلك وقتاً طويلاً من شبابه.⁽²¹⁾ وهو الذي شغف بدراستها منذ حداثة، واشتهر باطلاعه الواسع عليها وتفوقه فيها حتى عرف بأنه (القاموس السيار). وكان له ولع بالشعر الجاهلي والغريب من اللغة، وقد اعتنى في شبابه بشرح القصيدة اللغوية المشهورة بالديدية، وهو شرح كبير منسق، فكانت معرفته باللغة معرفة تحقيق وتدقيق، فقد كان يستدرك على كتب اللغة والمؤلفين، وأصحاب المعاجم حتى غدا حجة لا يُسأل عن لفظة حتى يجيب عن معناها وما ورد فيها من الشواهد من كلام العرب وما يدور حولها وبمناسباتها من النوادر والأخبار.⁽²²⁾

كما اشتهر من جهة أخرى بالسيرة وتراجم الرجال، فكان راوية حافظاً للأخبار والتراجم كثير اللوع بمطالعة كتب التاريخ والتراجم حتى يكاد يعرف ما ورد في ثناياها من الطرف والأخبار أمثال وفيات الأعيان ومروج الذهب وابن عساكر. أما ثقافته الدينية فلا تبلغ حد الاختصاص وانما هي من قبيل

⁽¹⁸⁾ محمد كرد علي، المعاصرون، تع: محمد صبري، مراجعة: محمد مكي الحسني الجزائري، ط2، البيئة للطباعة والنشر، دمشق، 2011، ص: 325.

⁽¹⁹⁾ محمد حسّان الطيّان، المرجع السابق، ص: 85.

⁽²⁰⁾ إبراهيم الزبيق، المرجع السابق، ص: 33.

⁽²¹⁾ محسن الأمين الحسيني، الأستاذ الشيخ عبد القادر المبارك، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، (صفر - ربيع الأول/ كانون الثاني - شباط، 1365 هـ - 1946 م)، ج 1 و2، مج 21، ص: 81.

⁽²²⁾ محسن الأمين الحسيني، المصدر السابق، ص: 83.

المشاركة، أما الثقافة الحديثة فلم يتلقفها عن المدارس النظامية كونه لم يمكث فيها إلا مدة وجيزة، وإنما كان ذلك نتاج المطالعة الخاصة والمجالسة لأهل العصر من الأدباء.⁽²³⁾

في حدود عام 1323هـ (1905م) افتتح مدرسة في زقاق النقيب في حي العمارة، وفي سنة 1328هـ (1910م) نجح في مسابقة تعيين أستاذ للغة العربية في المدرسة السلطانية الأولى بدمشق فبقي أستاذ في هذه المدرسة يعلم اللغة العربية، ثم كلف بتدريس الدين أيضاً، وتخرج على يده عدد كبير من المثقفين في الديار الشامية. وفي عهد الحكومة العربية الفيصلية أنشئت المدرسة الحربية فعين فيها أستاذاً للغة والدين والتاريخ العربي، كما عين عضواً في لجنة التعريب، التي كان لها الأثر الطيب في تعريب كثير من المصطلحات الإدارية والعسكرية وغيرها إلى العربية. ثم رجع إلى المدرسة السلطانية بعد أن أغلقت المدرسة الحربية بانقضاء العهد الفيصلي، وكلف بتدريس اللغة في مدرسة الأدب العليا التي أنشئت عام 1349هـ (1930م)، ثم أحيل على التقاعد سن 1359هـ (1940م)، ولكن عهد إليه مرة أخرى تدريس اللغة في دار المعلمين العليا التي أحدثت سنة 1361هـ (1942م).⁽²⁴⁾

كان الشيخ عبد القادر المبارك من أعضاء المجمع العلمي في دمشق العاملين منذ تأسيسه سنة 1338هـ (1919م)، كما كان مشاركاً في أعماله الكثيرة من لجان التصحيح والتعريب وظلّ إلى قبيل وفاته عضواً في اللجنة التي تكونت لترجمة المصطلحات العسكرية، كما كان يشارك في إلقاء المحاضرات بقاعة المجمع؛ من هذه المحاضرات محاضرة عن ابن خلكان وقصصه في تاريخه، وعن الشعر الخالد وغيرها من المحاضرات.⁽²⁵⁾

توفي الشيخ عبد القادر مبارك يوم 21 من ذي الحجة 1364هـ الموافق 27 نوفمبر 1945م، ودفن بعد أن صلي عليه في الجامع الأموي في مقبرة باب الصغير قرب الضريح المنسوب للصحابي الجليل بلال الحبشي - رضي الله تعالى عنه.⁽²⁶⁾

ومن آثاره العلمية التي تركها منها:

- شرح المقصورة الدريدية.

- فوائد الأدبيات العربية.

- المعلومات المدنية و ترجمه عن.⁽²⁷⁾

⁽²³⁾ محمد الحافظ مطيع ونزار أباطة، المرجع السابق، ج 3 (المستدرک)، ص: 605.

⁽²⁴⁾ محسن الأمين الحسيني، المصدر السابق، ص: 82.

⁽²⁵⁾ محمد الحافظ مطيع ونزار أباطة، المرجع السابق، ص: 606.

⁽²⁶⁾ إبراهيم الزبيق، المرجع السابق، ص: 97.

3.5. محمد بن عبد القادر بن محمد بن محمد المبارك (1331 – 1401هـ / 1912 – 1981م)

ولد بدمشق عام 1331 هـ (1912م) في دار مجاورة للمدرسة العدلية (المجمع العلمي العربي)، ونشأ في رعاية والده الشيخ عبد القادر المبارك، الذي استفاد منه كثيراً خاصة في علم اللغة وفقهها، وأخذ علومه في المدارس الحكومية بدمشق إلى أن أنهى مرحلة الثانوية عام 1351 هـ (1932م)، وكان إلى جانب ذلك يتردد على حلقات كبار مشايخ دمشق يأخذ عنهم مختلف العلوم باهتمام بالخصوص بحلقة أستاذه الشيخ بد الدين الحسني الذي لازمه وأخذ عنه في العلوم الرياضية والفيزيائية والكيميائية وغيرها. وبعد تخرجه من الثانوية انتسب إلى كلية الحقوق ومدرسة الأدب العليا في الجامعة السورية فحصل على شهادتين من الكليتين في سنة 1354 هـ (1935م). بعد ذلك اشتغل مدة قصيرة في مهنة المحاماة وكيلا للمحامي أسعد المحاسن. ثم أوفد بعد ذلك في بعثة لدراسة الأدب في جامعة السوربون فالتحق بمعهد الدراسات الإسلامية التابع لها، ودرس الأدب العربي والثقافة الإسلامية فيه، وهناك اطلع على الثقافة الغربية وعرف كبار مفكرين الغرب وخاض معهم نقاشات علمية.⁽²⁸⁾

وفي جامعة السوربون؛ خصّص السنة الأولى بالمعهد لدراسة الأدب العربي والسنة الثانية للأدب الفرنسي والثالثة لعلم الاجتماع، وتحصل بعدئذ على درجة الليسانس في الآداب عام 1357 هـ (1938م)، ودبلوم علم الاجتماع والأخلاق في السنة التالية. وبعد تخرجه عام 1358 هـ (1939م) عُيّن مدرساً للعربية في المدارس الثانوية بحلب وبقي فيها سنتين، ثم انتقل مدرساً في التجهيز ودار المعلمين ثم في دار المعلمين العليا، فدرس الأدب العربي والأخلاق والمنطق والفلسفة وبقي كذلك حتى عام 1365 هـ (1945م) حين أسندت إليه وظيفة التفتيش الاختصاصي العام بقسم التعليم الثانوي بوزارة المعارف السورية وشغل عضوية لجنة التربية والتعليم وكُلف بوضع مناهج التربية الدينية واللغة العربية فوضعها على أسس حديثة ومنهجية.⁽²⁹⁾

ثم كان له نشاط سياسي حيث استقال من وظيفته في وزارة المعارف سنة 1367 هـ (1947م) ليترشح لانتخابات المجلس النيابي، التي فاز فيها بثلاث دورات انتخابية، وبقي نائباً في المجلس حتى سنة

⁽²⁷⁾ خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج4، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 2002، ص: 45.

⁽²⁸⁾ يوسف المرعشلي، نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، ج1، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2006، ص: 2084.

⁽²⁹⁾ نفسه، ص: 2085.

1378هـ (1959م). وخلال الفترة ما بين 1949م و1952م عين وزيراً للأشغال العامة والمواصلات، ثم وزيراً للزراعة.⁽³⁰⁾

عُهد إليه التدريس منذ عام 1369هـ (1949م) في كلية الآداب بجامعة دمشق، فدرس (فقه اللغة والتفسير الأدبي للنصوص القرآنية) بصفة أستاذ محاضر لسنوات عدة، ثم لما أنشئت كلية الشريعة في عام 1374هـ (1954م) عين فيها بصفة أستاذ ذا كرسي، ثم عين عميداً على رأسها في عام 1378هـ (1958م)، وخلال هذه الفترة أخذ مجلسها باقتراحه لتدريس مادتي: (نظام الإسلام) و(حاضر العالم الإسلامي)، فكان أول من أضاف هاتين المادتين في الدراسات الجامعية.⁽³¹⁾

انتخب عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بدمشق في عام 1381هـ (1961م)، كما انتخب عضواً في المجمع اللغة العربية بالقاهرة، وعضواً في المجمع العلمي العراقي. ومنذ عام 1386هـ (1966م) انتدب للعمل في جامعة أم درمان بالسودان التي استمر فيها رئيساً لشعبة الدراسات الإسلامية إلى جانب تدريسه مادة (فقه اللغة) لعدة سنوات، بالإضافة إلى أنه كان أستاذاً محاضراً في كلية الحقوق بجامعة الخرطوم حتى 1389هـ (1969م)، ثم عمل بعدها أستاذاً بجامعة أم القرى بمكة المكرمة وبقي هناك حتى آخر أيام حياته، كما شغل منصب رئيس قسم الشريعة والدراسات الإسلامية بكلية الشريعة، ثم مستشاراً وأستاذاً باحثاً في جامعة الملك عبد العزيز عام 1398هـ (1978م)، ثم أستاذاً منتدباً في الجامعة الأردنية حتى وفاته.⁽³²⁾

كما أسهم في التخطيط العلمي بعدد من الجامعات العربية والإسلامية، فشارك في وضع مناهج مخططات كلية الشريعة بجامعة دمشق، ثم اختاره مجلس جامعة دمشق ممثلاً لها في المجلس الأعلى للتخطيط الجامعي للجمهورية العربية المتحدة بالقاهرة. وفي عام 1381هـ (1961م) كان عضواً لجان التخطيط في جامعة الأزهر، وبعد عام من ذلك أصبح عضواً في المجلس الأعلى الاستشاري بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، كما شارك عام 1384هـ (1964) بوضع خطة لكلية الشريعة وكلية التربية في مكة المكرمة من جهة الثقافة الإسلامية، وكان أول من اقترح جمع هاتين الكليتين وتسميتهما بجامعة أم

⁽³⁰⁾ محمد خير رمضان يوسف، تكملة معجم المؤلفين، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1997، ص: 515.

⁽³¹⁾ يوسف المرعشلي، المرجع السابق، ص: 2085. وأيضاً: محمد خير رمضان يوسف، المرجع السابق، ص: 515.

⁽³²⁾ محمد الحافظ مطيع ونزار أباطة، المرجع السابق، ص: 422.

القرى. وفي عام 1386هـ (1966م) اشترك في وضع خطط الكليات والأقسام بجامعة أم درمان الإسلامية، كما دعي في عام 1391هـ (1971) للمشاركة في وضع خطة للدراسة في معهد القضاء العالي بالرياض.⁽³³⁾

كما شارك إبان حياته في العديد من المؤتمرات العلمية والعلمية مثل: كراتشي لاهور ودمشق ومكة المكرمة ومقديشو والقدس وطرابلس الغرب والجزائر والمغرب والأردن وأندونيسيا وفرنسا وإيطاليا، وأيضاً شارك في اللقاءات الإسلامية المسيحية وأشهرها التي عقدت في الفاتيكان وفي باريس سنة 1394هـ (1974م) مع العديد من العلماء المسلمين الذين مثلوا مختلف الدول الإسلامية، والتقى بعدد من المستشرقين الأوروبيين الذين أعتفوا بفضل الإسلام على الإنسانية مثل: زنجريدهونكه الألمانية وموريس بوكاي وروجيه غاردي الفرنسيين.⁽³⁴⁾

ترك محمد بن عبد القادر مبارك العديد من المؤلفات العلمية والرسائل التي عالجت أهم قضايا المسلمين ووقعهم، هي كما يلي:

- سلسلة نظام الإسلام صدر منها (العقيدة والعبادة)، (الاقتصاد)، (الحكم والدولة).
- المجتمع الإسلامي المعاصر.
- الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية.
- آراء ابن تيمية في الدولة ومدى تدخلها في المجال الاقتصادي.
- دراسة أدبية لنصوص من القرآن.
- نحو إنسانية سعيدة.
- فقه اللغة وخصائص العربية.
- فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ.
- عبقرية اللغة العربية.
- الأمة العربية في معركة تحقيق الذات.
- الأمة والعوامل المكونة لها.
- العقيدة في القرآن الكريم.
- ذاتية الإسلام أمام المذاهب والعقائد.
- نحو وعي إسلامي جديد.

⁽³³⁾ يوسف المرعشلي، المرجع السابق، ص: 2085.

⁽³⁴⁾ محمد الحافظ مطيع ونزار أبازة، المرجع السابق، ص: 425. وأيضاً: محمد خير رمضان يوسف، المرجع السابق، ص: 515.

- المشكلة الثقافية في العالم الإسلامي.
- جذور الأزمة في المجتمع الإسلامي.
- مذكرات في الثقافة الإسلامية.
- بين الثقافتين الغربية والإسلامية.⁽³⁵⁾
- وله أيضا ، من المؤلفات:
- نظرة الإسلام العامة للوجود وأثرها في الحضارة.
- الإسلام والفكر العلمي.
- كما كتب عدة مقالات متفرقة في مجالات: الرسالة والمجلة والحضارة والأمة وغيرها من الصحف والمجلات ومما كتب:
- التجارب العلمية عند المسلمين.
- تاريخ الرياضيات عند العرب.
- النظام القرآن.
- مفهوم الأمة بين النظريات الاجتماعية والتصور الإسلامي.⁽³⁶⁾

لخص الأستاذ رياض جنزولي في مجلة (الفصل) عددها (62) ما أمتاز به فكر محمد بن عبد القادر المبارك بقوله: أنه ينطلق في تفكيره من القرآن الكريم والسنة النبوية بأصالة وبصيرة ذاتية، حيث نقل عنه عند الحديث عن دراسته في السوربون: "إن هذه الدراسة وسعت أفاقي وأكسبتي بعض المزايا الفكرية، ولاسيما في طرائق البحث وأساليب التفكير، ولكنها لم تستطع أن تؤثر في معتقداتي ولا أن تغزو عقلي، ولكنها زودتني بمعلومات نافعة ومناهج مفيدة، فتولدت في نفسي الكثير من الأفكار الجديدة، واكتشفت كثيراً من جوانب عظمة الإسلام وخصائصه".⁽³⁷⁾ ومما تميّز به فكره أيضاً؛ هو إيمانه بميزان النسب، وكان يرى أن يعطى المرء الأمور قيمتها الحقيقية كما أعطاه إياها الإسلام، فلا تعطى المسائل البسيطة أهمية كبيرة بينما يضعف شأن القضايا الكبرى، حيث قال في هذا الشأن: "لو أن النسب تغيرت عن قيمتها الحقيقية لدى الفرد المسلم لكان أشبه بالكاريكاتور، ولذا يجب نبذ الإفراط والتفريط والتزام

⁽³⁵⁾ محمد خير رمضان يوسف، المرجع السابق، ص: 516.

⁽³⁶⁾ يوسف المرعشلي، المرجع السابق، ص: 2086.

⁽³⁷⁾ محمد الحافظ مطيع ونزار أباطة، المرجع السابق، ص: 426.

ميزان النسب". كما كان يكره التعصب والانغلاق على فكرة واحدة والجمود، وكان يدعو المسلمين إلى إطلاق الحرية لعقولهم والتفكير بطريقة مثلى على هدي الكتاب والسنة ومذاهب الأئمة الأربعة.⁽³⁸⁾

توفي محمد بن عبد القادر المبارك في المدينة المنورة يوم الخميس 7 صفر 1402 هـ الموافق 3 جانفي 1981م، ودفن بالبقيع بعد صلاة الجمعة. ورثاه الشاعر ضياء الدين الصابوني في قصيدة من أبياتها:

أبكي الشمائل والفضائل والنهى	أبكي الأخوة والوداد الأكمل
فقد عرفتك مخلصاً متواضعاً	ولقد عرفتكَ في المكارم أولاً
ما مات من ترك المفاخر بعده	أبدًا ولا نال العلا من أهمل
راض الصعاب بهمة جبارة	وحلا له مر الحياة وما حلا
فا هنا أخي بحيرة محمودة	جُعِلت لكم جنات عدن منزلاً. ⁽³⁹⁾

الخاتمة:

يتبين من خلال هذه الدراسة جملة من الاستنتاجات جاءت كما يلي

- أن اهتمام علماء عائلة محمد المبارك بمجال التعليم والتصوف وإنشاء المدارس التعليمية، يبدو أنه يعود لشغفهم بحب العلم ونشره من جهة، وتوارثه قبل هجرتهم من الجزائر من جهة ثانية.
- أن عائلة محمد المبارك تمكنت بفضل الجهود والمساهمة التي بذلتها في مجال التعليم والتأليف أن تحض بمكانة جعلت أعلامها وعلماء من رموز العلم والنهضة في الوطن العربي في الفترة المعاصرة.
- إن البحث في نشاط الجزائريين المهاجرين في المجال الثقافي والعلمي أبان فترة الاحتلال الفرنسي لا زال يحتاج إلى دراسات أخرى تبين الدور الذي لعبته العائلات الجزائرية في المشرق وفي نهضته التي عرفها في مطلع القرن العشرين، وما قدمه الوزير والمفكر محمد بن عبد القادر بن محمد بن محمد المبارك الجزائري من جهود خطط وبرامج الجامعات دمشق وجامعة الأزهر القاهرة وجامعة أم القرى السعودية، وأم درمان السودان وجامعة الأردن يحتاج إلى دراسة متفردة لهذه الشخصية العلمية.

⁽³⁸⁾ يوسف المرعشلي، المرجع السابق، ص: 2086.

⁽³⁹⁾ محمد الحافظ مطيع ونزار أباطة، المرجع السابق، ص: 426 – 427.

- أن الشخصيات العلمية الجزائرية المهاجرة خلال الفترة الحديثة والمعاصرة لازالت تحتاج إلى دراسات تخدم تاريخ الجزائر من خلال تناول دراسات تتعرض لمسيرة الشخصيات العلمية الجزائرية المهاجرة إلى البلدان العربية أو الأجنبية.

قائمة المراجع:

- البيطار (عبد الرزاق)، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، الجزء الثالث، تحقيق وتعليق: محمد بهجة البيطار، دار صادر، بيروت، 1993.

- تيمور (أحمد باشا)، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، مؤسسة هنداي، المملكة المتحدة، 2017.

- الحسيني (محسن الأمين)، "الأستاذ الشيخ عبد القادر المبارك"، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، (صفر - ربيع الأول/ كانون الثاني - شباط، 1365 هـ - 1946م)، الجزء الأول والثاني، المجلد الحادي والعشرون

- الخالدي (سهيل)، الإشعاع المغربي في المشرق، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2016.

- الزركلي (خير الدين)، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الجزء الرابع، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 2002.

- الزبيق (إبراهيم)، عبد القادر المبارك العلامة اللغوي عضو مجمع اللغة العربية (1293هـ/1876م - 1364هـ/1945م)، إصدارات مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق، سورية، 2009.

- الشطي (محمد جميل)، روض البشر في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، 1323هـ.

- الطيّان (محمد حسن)، المفارقات والمناظرات، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2000.

- كرد (محمد علي)، المعاصرون، تعليق: محمد صبري، مراجعة: محمد مكي الحسيني الجزائري، الطبعة الثانية، البيئة للطباعة والنشر، دمشق، 2011.

- المرعشلي (يوسف)، نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، الجزء الأول، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2006.

- مطيع أباضة (محمد الحافظ، نزار)، تاريخ علماء دمشق في القرن عشر الهجري، الجزء الأول والجزء الثالث (المستدرك)، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، سورية، 1986.

- هلال (عمار)، الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام (1847 – 1918)، دار هوبة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.
- يوسف (محمد خير رمضان)، تكملة معجم المؤلفين، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1997.